في مقاربة الخيال العلمي

أ/ فيصل لحمر
قسم اللغة و الأدب العربي-جامعة جيجل

1-بذور وجذور

قد يتناول الأدب الحياة وقد يحاول الابتعاد عنها... يغوص في تفاصيلها الواقعة القائمة أو يطمح إلى إعطائها ملامح جديدة، ويلبسها لبوسا غير معهودة فيكون واقعيا أو غير واقعي، وفي الحالين كلتيهما يعجز الأدب عن الابتعاد عن الحياة.

وهذا هو منبع ذلك السؤال الذي اعتمل في صدر الكاتب الفيلسوف الإنجليزي ألدوس هكسلي Aldous Huxley فأقام حوله محاضرة ومجموعة من الفصول.. كيف يؤثر الأدب في الحياة؟ وكيف تؤثر الحياة في الأدب؟.. ولم يجد بدا من الحديث عن التقدم العلمي وعن كون حضارة القرن العشرين (و يجوز أن نلحق بها حضارة القرن الحادي والعشرين دون استشارة هكسلي) حضارة علمية بالدرجة الأولى.[1]

وهذا الكلام نجد له أصداء قوية جدا في عالم الخيال العلمي منذ التاريخ المشهور الذي هو عام 1818 أين أصدرت زوجة الشاعر الإنجليزي الكبير بيرسي شيلي، الروائية ماري شيلي Mary Shelley روايتها "فرانكنشتاين Frankenstein" التي وضعت لها عنوانا هامشيا "بروميثيوس الجديد" والملاحظة لا تخلو من أهمية، بل إنها – كما يقول الناقد الفرنسي جيرار جينيث Gerrard Genette "نظام من الإشارات القارة التي تطرح إشكاليات إصدار المعني منذ البدء (وقبل البدء)"[2]

---

[1] Huxley, Aldous: le meilleur des mondes- ….. Paris 1986 (nouvelle introduction pour la traduction francaise de 1944)

[2] Genette, Gérard: Seuils – ed du Seuil- 1987- p:12.

فالعنوان بامتداداته "يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه ...هو بمثابة الرأس للجسد والأساس الذي تبنى عليه..."[3]

لهذا يجب أن نقف أكثر من وقفة عند هذا العنوان الفرعي، فالروائية تعي جيدا أنها وهي تكتب نصها تجاوزت الواقع، فهي في بعد أسطوري معين، ولا تستبعد كون أسطورة بروميثوس – ورحلته التراجيدية لإحضار النار المسروقة من ميدان الآلية من أجل هبتها إلى البشر – حاضرة في ذهن الروائية من البداية إلى النهاية، كما لا نبتعد كثيرا عن صدق التخمين إذا قلنا إن الأسطورة هي التي أوحت إلى الناصّة بفكرة النص، وإن كنا لا نملك وثيقة واضحة تبين ذلك، إلا أن هذا التخمين هو إحدى أقوى القراءات الممكنة من العنوان الفرعي " بروميثوس الجديد".

إن كثيرا من مؤرخي أدب الخيال العلمي يعدون هذا التاريخ البداية الحقيقية لهذا الأدب ... من منطلق فكرة تحول " السحري" و" العجائبي"- وهما مقولتان مركزيتان في النص الأسطوري – إلى "العلمي" أو" التجريبي" و" السببي" – وهما المقولتان المسيرتان للفكر العلمي والفلسفة العلمية وللأدب العلمي.

مع ماري شيلي اكتسبت الأسطورة بعدا واقعيا، وأصبح العجائبي جزءا (محدودا) مما هو واقعي، أي أنه غدا واقعا جزئيا ينظر إليه من زاوية محدودة هي زاوية البحث العلمي والتجارب المخبرية والاختراعات الغريبة العجيبة.

ولا تمر أربعون سنة حتى يأتي جول فيرن Jules Verne منطلقا من الإشكالية الناتجة عن ضيق هامش هذه "

---

[3] مفتاح، محمد: ديناميت النص- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1990- ص780.

الواقعية"، والضيق الذي قد يعيد الواقعية العلمية" [*] إلى زاوية منعزلة تبعدها تماما عن الواقعية: ذلك النيشان الذي لا بد منه لأي كاتب محترم منذ نهاية القرن 18م وهي الإشكالية التي حلها بتصوير حياة العلماء، بجعلهم أبطالا لرواياته، بتصوير نفسياتهم وهواجسهم وأحلامهم المجنونة ومعاناتهم مع وسطهم، وطرق معالجة رفض الآخرين لهم ولأفكارهم "المجنونة"...[1]

الشيء الجديد مع جول فيرن هو عودة تلك الأخوة القديمة التي عملت النهضة الغربية والعصور الجمالية المتتالية (كلاسيكية، رومنسية، غوطية...الخ) على اندثارها، والمقصود طبعا هو الأخوة القديمة بين الأدب والعلم.

الفيلسوف قديما كان أديبا ذا أسلوب جميل وبيان لا طعن فيه، وكان ملما بكل المعارف المحيطة به (وجوبا لا جوازا) لذلك نجد أبا اليوطوبيات (المدن الفاضلة) هو أفلاطون بجمهوريته... ونجد طلائع الكتابة التي ربما تقترب شيئا ما من الخيال العلمي لدى العرب تتأتى بقصة "حي بن يقضان" والقصة التي نسبت لها " سلامان و أبسال" – وهي هندية الأصل- وهي القصة التي كتبها تباعا ابن سينا ثم الجلال السهروردي انتهاء بابن طفيل (وكلهم كما نرى فلاسفة).

بل إن الأدباء والمتأدبين شعروا باجتماع شعب المعرفة جميعا في الأدب، وإذا كانوا خصوا الفلسفة بالحجة والمقارنة والربط بين المقدمات والنتائج، فإنهم جعلوا كل ما عدا ذلك مما هو إعراب عن أي معنى كان داخلا في دائرة الأدب.

"قال الوزير الحسن بن سهل المتوفي سنة 236 هـ الآداب عشرة، ثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية

---

[*] المصطلح " un réalisme scientifique " مقترح من قبل الروائي والناقد الفرنسي مشال بيتور عام 1957 في فصل ضمن مجلد الفصول النقدية " repertoire1"

[1] SADOUl, Jacques: Histoire de la science-fiction moderne - (V:2)- j'ai la – Paris- 1973 – p72.

وواحدة أربت عليهن، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس"[1]

وهذا النص عظيم الفائدة لأنه يدخل تحت راية الأدب الرياضة والعلم وأنشطة التسلية والتاريخ وثقافة المجالس ... وهذه مجالات حيوية لا تعرف لها اجتماعا ما عدا اجتماعها تحت راية الأدب.

إلا أننا حينما نقرأ هذه الأخوة القديمة بين العلم والأدب، لا نقصد أن الخيال العلمي هو كل لقاء بين الأدب العليم مهما كان شكله وسياقه وزوايا نظره، فالخيال والعلم جزءان من الفضاء الحيوي للإنسان، ولا بد لهما من تلاق ... أما ما نؤرخ له فهو الثلاثي القصدي المخطط له، الثلاثي الذي تقف خلفه نية القيام بفعل الكتابة لأجل المخالفة، بفعل التأسيس لأخدود إبداعي لا قبل لوجه الأدب الكوني بمثله.

وإذا كانت قصة فرانكشتاين " قابلة لأن تتخذ نقطة بدء بالنسبة للكثير من مؤرخي النوع[2]فإن جول فيرن هو الكاتب الأول في تاريخ الأدب العالمي الذي جعل أعماله داخلة تحت منظور واحد ووحيد هو وصف حياء الإنسان من حيث تأثرها بالعلم وتجديده، وإذا كان الناشر المشهور هتزل "Hetzel" والذي هو صديق جول فيرن والمشرف الوحيد على نشر أعماله الكاملة (أكثر من ثمانين كتابا) قد اختار العنوان التجاري "الرحلات العجيبة " les voyages extraordinaire" من جهة، وإذا كانت أعمال فيرن تعد رحلات

---

(1) راغب نبيل: التفسير العلمي للأدب – لبنان ناشرون/لوغمان – 1997 – مصر – ص 318.

(2) (3) Fontaine, Frederie: La science Fiction – les essentiels MAME – Paris –1998-p19

فيها انتقال وحوادث وعجائب وطرائف، من جهة أخرى، فإن الرحلة الأساس هي رحلة العقل البشري في مداراته ورحلة إنسان القرن 19 من الكلاسيكية إلى مرحلة الحداثة، إنها الرحلة/القفزة التي قام بها معاصرو جول فيرن وهم ينقلون من مرحلة إنسان ما قبل الثورة الصناعية إلى إنسان ما بعدها، من اليقينية إلى الريبية، من السكونية المثالية إلى الجدلية الحركية لعالم المادة، عالم الآلة والأداة التي تنتج صناعيا بأعداد كبيرة في مشاغل يهتم بها كل الناس أكثر من اهتمامهم بالكنيسة وبالحديقة، الأدوات التي تتكاثر حتى تغير العالم مسلطة عليه نظرية عالم الأشياء.

تلك هي الرحلة التي قام بها جول فيرن والتي أوصلته إلى كتابه الأخير، وهو كتاب قليل الشهرة عميق المغزى، "آدم الخالد "l'éternel Adam" إذ أن فيه صورة رجل اسمه " هيدون" يعيش في عزلة نفسية مكفهرة الأجواء، تعلم شيئا فشيئا أنه ابن سلالة من الأشخاص أسماؤهم تنويعات مختلفة على اسم آدم الجد البعيد، والذي هو نفسه ابن سلالة أكثر افتراضية أخرى لا تعرف أسماؤهم...هذا الشخص الكئيب الحزين الذي ينتظر مجيئ زمن آخر أفضل وأجمل من زمنه والذي ينتظر كل ذلك منذ زمن بعيد (ربما يكون الأبدية) يعبر بحرارة ودلالة كبيرة عن الرحلة الأخرى التي قام بها جول فيرن مغربلا القرن 19 وناظرا صوب القرن العشرين بريبة وخوف لا يمتان بأية صلة إلى العجائبية الكبيرة التي تملأ رواياته وإلى الثقة العمياء في العلم وإلى التبشير المتواصل نجد أفضل[1]

بالموازنة مع جول فيرن ظهر في انجلترا كاتب كبير جدا كان أثره حاسما في الانتقال بالخيال العلمي من دائرة الكتابة

[1] SADOUl, Jacques: histoire de la science fiction moderne – j'ai la- 19 – Paris – p.p135-137

للناشئة إلى دائرة كتابة أدبية جادة تتفاعل مع المعطى العلمي الحاضر لأجل معالجة المعطى الاجتماعي الحاضر، وكان ويلز مهتما أشد الاهتمام بالفكر الاشتراكي وبالماركسية النامية، إذ كان منتميا إلى تلك الطبقة الأدبية الإنجليزية التي سميت بالفابية والتي شغلها الشاغل النظر إلى انجلترا من زاوية نظر اشتراكية لأجل كسر البناء السوسيوثقافي القائم The Establishment والمتحكم في كل شيء على عكس ما كان يحدث أو يستشعر حدوثه في بلدان أوروبية أقل تقليدية وأقل تحجرا[2].

وبالتحام الخيال العلمي الفيرني مع الهواجس الفلسفية والاجتماعية دخل الخيال العلمي التاريخ على محورين من أبوابه العريضة... إلا أن الأقدار تشاء أن يكون تطور الأخ. ع سائرا على محورين متوازيين توازيا كاملا، ففي حين نجد التيار الأدبي الذي يكتب الخيال العلمي دون أن يسميه: الروسي يوجين زامياتين (نحن 1929) والإنجليزي ويلز (الرجال الأوائل على سطح القمر 1901، يوتوبيا حديثة 1924) الإنجليزي ألدوس هكسلي (عالم جديد فاضل 1932 - القرد والماهية 1948) والإنجليزي جورج أورول (سنة 1984 - 1998)، الفرنسي روسني إيني (الحرب لأجل النار 1911- موت الأرض 1910) والفرنسي موريس رينار (يدا أورلاك 1920) نجد بالموازاة تيارا هامشيا هو الذي يسيطر على تسمية الخيال العلمي لسبب بسيط جدا هو أن أباه هيوغو غرنسباك المهندس الكاتب هو الذي ابتدع التسمية scientifiction الذي سيتحول بسرعة إلى science fiction، وأن غرنسباك هو الرجل الذي أنشأ أول مجلتين مختصتين في الخيال العلمي وهما " قصص عجيبة " Amazing Stories" 1926 وقصص مدهشة "Astounding stories" 1930،

---

[2] Ibid – p146

وبسرعة تكاثرت هذه المجلات في غرب أمريكا كي تستقطب جيلا كاملا من المؤلفين.
وقد كتب الباحث فريديريك فونتين كرونولوجيا مبسطة لأهم ما حدث على هذه الحقيقة التي هي النواة الأساسية للخيال العلمي، والتي لا نجد لها – للأسف الشديد- كبيرا نشر في الكتب المؤرخة أدب القرن العشرين.
ونستعرض فيما يلي هذه الكرونولوجيا كما وردت في الكتاب القيم " الخيال العلمي" la science fiction""[1]

2-**سبقان وفروع**

كرونولوجيا الخيال العلمي:

- ☒ سنة 180 قبل الميلاد: يكتب لوسيان (التاريخ الحقيقي) وفيه يتصور نفسه يزور مجتمعا يعمر القمر، وهي أول رحلة فضائية جاءت في نص غير مساوي، والكثير من محبي الخيال العلمي يحلو لهم أن يعدوا هذا الكتاب حاويا الخيال العلمي.
- ☒ القرون الوسطى: نصوص كثيرة فيها رحلات إلى السماء من بينها (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري وعينية ابن سينا التي تصف رحلة الروح صوب خالقها وتائية أبي حامد الغزالي في طبقات النفس وفيها معطيات خ.ع كثيرة، وكذلك اليوطوبيات القديمة مثل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي وأطلنطيس لفرنسيس بيكون، وأطوبيا طوماس مور ومدينة الشمس لكامبانيلا والكثير مما يشبه ذلك، ولكن هذه الأعمال التي هي فلسفية بالدرجة الأولى لا تجعل الخلق الخيالي هما لها، ولا تحمل تصور المستقبل للحياة في علاقة المؤثرة والمتأثرة بالعلم، فكل ما يشبه الخيال العلمي في هذه النصوص جاء عرضيا فقط.

---

[1] Fontaine, Frederie: La science Fiction – les essentiels MAME – Paris - 1998.

☒ 1818: مـاري شـيلي (زوجـة الشـاعر الإنجليـزي الشـهير) تكتـب نصـها المرجعـي فرنكشـتاين وفيهـا يقـوم الدكتور الذي أعطى اسمه عنوان الرواية بإعادة جثة هامـدة إلى الحياة بواسطة الطاقـة الكهربائيـة الكامنـة فـي الرعـد، وهذا معطـى علمـي قـوي وحقيقـي، وتبنـى عليـه الروايـة كلها، وهـي المـرة الأولـى التـي يقـود فيهـا العلـم الخيـال.. الكثير من المنظرين يعد هذا التاريخ المـيلاد الحقيقـي لأدب خ. ع ولثقافة خ.ع بصفة عامة.

☒ 1838 – 1845: على يد الشاعر الأمريكي إدغـار آلان بو تصدر بالترتيب قصـتان همـا (مغـامرات آرثـر غـوردون بـيم) و(حقيقة قضية السيد فالديمار) وتظهر في الأولى مخلوقات غيـر أرضـية للمـرة الأولـى فـي تـاريخ الأدب العـالمي، كمـا تطبـق القصـة الثانيـة نظريـة علميـة تسـمى الـتحكم المغناطيسـي حسـب فرانز ميسمر، هـذا الاخيـر هـو طبيـب مشـهور عـاش فـي القـرن الثـامن عشـر يعـد مـن آبـاء علـم النفس. على يد إدغر آلان بو يظهر الإيمان فـي قـدرة العلـم علـى تحسـين عـيش النـاس، وعلـى الـتحكم فـي التـاريخ وعلـى أخـذ الإنسـانية لأمورهـا بـين يـديها، العلـم يسـير التاريخ... هـذا مـا كـان يقولـه بـوفي 1845 إلا أنـه لـم يعـش القدر الكـافي كـي يكتـب أعمـالا فـي الخيـال العلمـي بـأتم معنى الكلمة.

☒ 1840-1890: نصـف قـرن مـن إنجـازات العلـم .. الثـورة الصـناعية غيـرت وجـه الكـرة الأرضـية.. القـارات انقسـمت انقساما جديدا.. البشرية صارت منتجا ومسـتهلكا.. التجـارة تحولـت وتكـاثرت.. الطـب جعـل النـاس يعيشـون أكثـر.. المصارف الحديثة ولـدت وكبـرت وسـيطرت علـى السياسـة الدولية.. الإنجازات العلمية الكبرى كلها تحققت ولم يبـق إلا تطـوير مـا قـام العلمـاء بإنجـازه والتفكيـر فيـه والتحضـير لـه. المحرك ذو الاحتراق الـداخلي، المولـد الكهربـائي، المجمـع

الكهربـائي، السـيارات الأولـى، المنطـاد، البـواخر، غيـر الشراعية، القنابل الحديثة، المدافع غرف الاحتراق، البارود، السكك الحديدية ترسم المدن المقبلة، المحركات البخارية تخترع، الإنتاج الصناعي الحديث، البلاستيك يخترع عام 1865، المعارض العالمية الأولى تأتي معرضا ثقافيا وتقدميا منذ 1880، المصانع الكبرى تعد بالرخاء والتغلب على جميع أنواع الحرمان، والعلم لا يجد معرضا على الإطلاق العلم موضة اليوم والغد.

☒ 1864: (رحلة صوب مركز الأرض) لجول فارن، ثم في 1865 (من الأرض إلى القمر) للكاتب نفسه، هذان العملان يكشفان النقاب عن أول كاتب متخصص في أدب خ.ع أو أدب التوقعات العلمية، فالأعمال غير الواقعية لجول فارن، وهي أكثرية أعماله، تعتمد على توقع الواقع المقبل على ضوء معطيات البحث العلمي المتزامنة معه، وبذلك نراه يصور الغواصة بل اختراعها، ويتحدث عن الطائرة العمودية وعن أسلحة الدمار الشامل، والتلفزيون والراديو، والتواصل اللاسلكي، والعالم المجنون باختراعه، وأعداء البشرية، ويصور النقل الجماعي والطرق المعبدة..الخ وهي كلها أشياء لم يعرفها البحث وموضوعاته ووجهاته.. إلا أن ما يجب عدم نسيانه هو أن جول فارن بدأ حياته متشائما من المستقبل تحت نياشين العلم، وذلك ما يوضحه كتابه (باريس في القرن العشرين) الذي كتبه عام 1862 ولم ينشر إلا عام 1994 بعد ما رفضه ناشره، وختم أعماله متشائما فاقدا الأمل في صلاح البشريةوإصلاحها، بعلم أو بغير علم هذه الموضوعات سيطورها أعداء التقدم وكثير من الكتاب في القرن العشرين، وسيحدث كل ذلك في ميدان أدب الخيال العلمي.

☒ مفترق قرنين 19 أو 20: استفادة الإنجليزي الشاب هيربرت جورج ويلز من ميل القراء صوب هذا النوع الجديد

من الأدب، الميل الذي خلقه جورج فارن بالدرجة الأولى فأصدر أربعة كتب جديدة في شكلها ومضمونها وهي(حرب العوالم)، (آلة الزمن)، (جزيرة الدكتور مورو)، و(الرجل غير المرئي) 1895 – 1897 وفيها خلق لأربعة موضوعات صارت من كلاسيكيات خ.ع فيما بعد وهي: الخطر الفضائي، الحركة في الزمن، العالم المجنون أو القوة غير المحدودة وقوى الدمار الشامل.

☒ 1903: رحلة إلى القمر، فلم من إخراج جورج ميليس، أول فلم خ.ع في تاريخ السينما.

☒ 1911:(رالف 124 س 41+) رواية لهيغو غيرنسباك، وهو أبو الخيال العلمي الحديث رغم أنه في الأصل مهندس كهربائي ثم أن قصصه كانت من أجل شرح أبحاثه العلمية لا غير، وهذا ما سيدفعه إلى إنشاء مجلة القصص العجيبة Amazing Stories 1926.

☒ 1926: (ميتروبوليس) أول فلم خ.ع طويل ومتكامل وجديد، نجح نجاحا كبيرا جدا وكشف عن مخرج عظيم هو فريتز لانغ.

☒ 1929: ظهور تسمية Science Fiction بهذا الشكل النهائي مرورا بعدة تسميات، فرنسية إنجليزية، والمصطلح من وضع هوغو غرنسباك سابقا.

☒ 1930: ثلاثة مجلات خ ع تباع في الاكشاك الأمريكية، ونوادي القراء، والمعجبون المتحمسون يصدرون مطبوعات ذات سحب محدود وقيمة أدبية رفيعة، تسمى FANZINE وهي نحت من كلمتي FANATIC و MAGAZINE وهي مجلات المعجبين التي ستؤدي إلى كثرة المعجبين وظهور ما يسمى FANDOMوهي كلمة منحوتة أيضا من كلمتي FANATICو DOMAIN (المجال) أي مجال المعجبين.

☒ 1937: ظهور أحد أهم الأعلام المؤثرين في خ.ع الحديث، جون كامبل الذي أدار تحرير مجلة Astounding Stories تحت العنوان الجديد Astounding Science Fiction وقد كان له تأثير كبير على نصوص الخيال العلمي في تلك المرحلة إذ اشترط أجمل وأكثر أدبية مما سبق كما طلب من المتعاملون معه صرامة علمية وتدقيقا أكبر في المادة العلمية التي يتم عرضها أثناء الكتابة وهو الأب الروحي لأهم كتاب ما يدعى بالعصر الذهبي لـ خ ع (الأربعينيات والخمسينيات).. الأمريكي إسحاق عظيموف، ألفريد ألتون فان فوت، وروبيرت هاينلاين.

☒ 1939: أول ملتقى لـ خ.ع.

☒ 1941-1951: الخيال العلمي يصدر على شكل كتب مباشرة دون المرور بالمجلات، عدد القراء يتزايد، الكتاب الذين سيصبحون عمالقة خ.ع ينشرون أهم أعمالهم، القنبلة الذرية تجلب الاهتمام والانتباه صوب الخيال العلمي وكتابه الذين طالما حذروا من ذلك النوع من الاسلحة ومن البحث في تلك المجالات والسير في ذلك النوع من السبل السياسية، الرحلة إلى القمر بصدد التحقق ولم تعد حلما طفوليا يراود كتاب الخيال العلمي فقط، التقدم العلمي يؤثر في حياة الناس، الحرب الباردة تشجع الـ خ ع الترفيهي، ظهور تيارين أحدهما علمي تقني صارم Hard. S.f والآخر يميل صوب إلقاء الضوء على نفسية الانسان وعوالمه الداخليةPoetic sf ، ويتحول إلى موضة أوروبية بعدما ظل أمريكيا طيلة عشرين سنة أو أكثر.

☒ 1962: عشرية خصبة جدا بالنسبة لثقافة الخيال العلمي وليس الأدب فقط، أفلام كثيرة يتم إنتاجها وتحظى باهتمام واسع وإقبال رهيب، أول هذه الكتب منتخبات خ.ع 1953، أوروبا تهتز اهتزازا كبيرا وخيالها العلمي أرقى مستوى وأكثر اهتماما بالبحث الأسلوبي، جائزة هيوغو

تنشأ عام 1953 ويتحصل عليها الأمريكي ألفريد بيستر وروايته (الرجل المهدم)، روسيا تصل القمر وأمريكا تعد بوطنه.. كاتب رهيب يبدأ نشر قصصه ورواياته الأولى: فيليب كيندرد ديك سوف يكون أهم كاتب خ.ع في منتصف الستينات وسيحصل بدوره على جائزة الهيوغو عام 1962 على روايته (رجل القصر العالي)، من جهة أخرى أفلام خ.ع تجلب جمهورا لا يزداد سوى اتساعا والأشرطة المصورة الموجهة للأطفال تسحب بأعداد خيالية وعلى رأسها الرجل الفأر Batman، الرجل العنكبوت Spiderman سوبر مان superman ، في حين تطلب قنوات التلفزيون في كل مكان مسلسلات خ.ع.

☒ 1959: ظهور أشهر مسلسلات الخيال العلمي على الإطلاق وهو (البعد الرابع) في الترجمة الفرنسية عن (منطقة الغروب) في أصله الأمريكي، اما في البلاد العربية فإن توفيق الحكيم يصدر أول كتاب عربي خ.ع من الغلاف إلى الغلاف وهو رحلة إلى الغذ، بعدما كان نشر نصوصا في الخيال العلمي هنا وهناك وبعدما عرف المستمع العربي خ.ع في مسلسلات إذاعية محدودة الأهمية رغم اهتمام الناس بها.

☒ 1963-1972 Spéculative Fiction تيار قوي يسيطر على الخيال العلمي الأمريكي والإنجليزي وهمومه الأساسية هي: العلو بالمستوى الأدبي لـ خ.ع، الابتعاد عن خ.ع الذي يكتب للتسلية، الاقتراب من الإنسان أكثر فأكثر ومحاولة علاج واقعه اليومي.. جائزة هيوغو تنتشر أكثر ونصوصها تزداد قيمة فنية.. الكثير من الملتقيات على القارتين.. خ.ع يصبح أهم وأجمل كتابة في روسيا وبولونيا والبلدان الاشتراكية.. فلم (2001 أوديسيا الفضاء) ينقل خ.ع نقلة نوعية ويصدم ما تعارف عليه الناس حول هذا النوع من الأدب.. أمريكا تطأ أيضا القمر وفلم (البرتقالة

المكانيكية) ممنوع من العرض ومخرجه ستانلي كيوبرك (مخرج 2001 أوديسيا الفضاء) يجيب على أسئلة القضاة في المحكمة، جيل من الشباب يحدث صرخة كبيرة تحت عنوان رؤى خطيرة وهي مختارات من إنجاز الشاب الموهوب هارلان إليسون في حين تشهد إنجلترا اعتماد مصطلح spéculative Fiction الدلالة على الخيال العلمي بدل من Science Fiction ولأول مرة يسمى الخيال العلمي بالخيال الافتراضي ولكنه يبقى خيالا علميا وتتسع دوائره ويزداد شعبية ويرتفع مستواه.. ثلاثة أسماء تتربع على عرش هذا الاتجاه الإنجليزي مع مطلع الستينات هي: برايان ألديس، جي جاي بالارد، ومايكل موركوك.

☒ 1973-1984: أول ملتقى للخيال العلمي في فرنسا، نجاح باهر وإقبال عريض أهم أفلام خ.ع في القرن العشرين (مقابلة الصنف الثالث) لستيفين سبلبرغ (حرب النجوم) لجورج لوكتش (الغريب) لردلي سكوت، (العداء فوق السكاكين) لردلي سكوت أيضا.. سلاسل الخيال العلمي في الفقرات الأربعة لا تفتأ تتكاثر.. موت فليب ديك يحدث صدمة أدبية كبيرة وأعماله تعاد قراءتها منذ عام 1982 بانتظام، قرابة العشرين فلما ستنتج استنادا إلى أعماله قبل نهاية القرن والحدث يوصف كموت أول كاتب خ.ع بلغ شهرة تعدت شهرة كتاب الأدب العام، وكذلك موت أول كاتب خيال علمي لم يكتب سوى خ.ع.

☒ 1985-2002: الخيال العلمي أصبح ثقافة.. كتاب الـ خ.ع أصبحوا عصبة طلائعية تجرب أشكال الكتابة الأكثر شجاعة، الأكثر تجريبا والأقل ملاءمة للذوق العام.. سينما الخيال العلمي تحقق جميع الأرقام القياسية ET لسبيلبرغ أعلى الإيرادات المباشرة (أي على مدى شهر ثم شهرين ثم فصل ثم عام، حسب مقاييس الإيرادات المباشرة) WaterWorld الفلم الأعلى تكلفة في تاريخ

الســينما، Jurassic Park لســبلبرغ أيضــا صــاحب أعلــى الإيــرادات فــي تــاريخ الســينما علــى الإطــلاق.. الخيــال العلمي يتحول إلى ثقافة شـعبية ونمـط معيشـي ولـيس أدبــا أو ســينما فقــط الخيــال العلمــي يــدخل التجميــل والموضة والإخراج والتركيـب السـينمائي وتصـاميم البيـوت والديكورات والوشـم والرسـم على الجدران وبـاقي أشـكال التعبير الشعبي.

3-**<u>أغصان وأوراق وثمار</u>**

بسرعة كبيرة إذا تغلغلت مقولة الخيـال العلمـي فـي ثقافـة عصرنا هذا، فهذه العبارة في الاسـتعمال الـدارج دالـة علـى كل ما هو مدهش أو متجاوز للمألوف، وهي في الاستعمال العلمي دالة على كل المباحث العلمية التي تثبت بعـدا، أو كل أحلام العلمـاء التـي لا يبـدو قائمـة علـى معلـم علمـي واضـح (ولكنهـا أحـلام ممكنـة الوقـوع بشـكل مـا)، أمـا فـي الميدان الأدبي فالخيال العلمي هو سلسلة من المواضـيع (التيمات) التي يـدور فـي مـداراتها السـرد الأدبـي (السـفر عبر الزمن، ما فوق الإنسـان، العـوالم البعيـدة، زوار الفضـاء، اليوطوبيات، الذكاء الاصطناعي، الحروب الكونية...الخ).

وإذا كان مصطلح (الخيال العلمـي) قـد تغلغـل فـي "حياتنـا" بشكل عام فإن ذلك راجع إلـى دور لعبتـه السـينما لا شـك فيه (وهو الأمر الذي يتضح لنا من خـلال الكرونولوجيـا التـي مرت بنا)، ولكن السؤال المطروح هو: لمـاذا نجحـت سـينما خ.ع ونجح معها أدب خ.ع إلى هذا الحد؟

لن تكون الإجابة بعيدة عـن مقولـة ألـدوس هكسـلي التـي مفادها أن هنالك "غريزة علمية كامنـة فـي الإنسـان، هـي التـي تجعلـه يتكـئ إلـى كـل مـا هـو علمـي، ويصـدق كـل الخرافات متى ما ارتكزت مرتكزا علميا، وهـي الغريـزة التـي

تراقب تطور التاريخ (الذي هو تطور مجمل الغرائز البشرية) منتقلا من التفسير البشري العام إلى التفسير العلمي[1].
إذن فلا بد من تركيبة خاصة داخل الإنسان تبحث لها عن " إشباع علمي "لكي نجد هذا الميل الشديد إلى ثقافة خ.ع وأدبه خاصة. تركيبة يبدو أنها كانت قائمة في انتظار عصر الثورة الصناعية المتبوع بعصر الثورة العلمية كنتيجة حتمية للثورة الأولى.
وقد ترصد الكاتب شوقي جلال مباحث تعبر عن غريزة ألدوس هكسلي من خلال فصل بعنوان " الخيال العلمي ومستقبل الوعي الإنساني" متحدثا بالدرجة الأولى عن كتاب للعالم الأديب جيروم كلايتون جلين " عقل الإنسان – الذكاء الاصطناعي" الذي ربط بين أحلام أدباء خ.ع في مجال الذكاء الاصطناعي والمعطيات العلمية الأكثر حداثة، ويخلص صاحب المقال إلى أن " العالم في بحثه النظري أو المعملي سبقه الخيال المؤسس على المتوافر لديه من إمكانات وإنجازات، وبدأ يكون خياله هذا خيالا علميا وإن لم يضعه في نسيج روائي. ويمثل الخيال العلمي هنا الوقود الروحي لقوى الابتكار التي تضع حلولا لمشكلات الحاضر، أو تنطلق بالإنسان ماديا وعقليا ومجتمعيا إلى مستقبل يتجاوز حدود وقيود الواقع الراهنة، ومن ثم يكون الخيال العلمي عمليا سبيلا لطفرة تطورية تجسد نقلة حضارية ترتقي بالإنسانية"[1].
يذيب هذا الكاتب الغريزة العلمية في غريزة أوسع هي الحلم: ويوحي بإذابة غريزة الركائز العلمية في النزوح الفطري إلى المنطق والانسجام والنظام والانتظام و...الخ.

---

[1] زكي نجيب محمود: في فلسفة النقد – دار الشروق- مصر- ط2.
[1] مجلة العربي- ع:147- الإثنين 1كانون الأول2003.

وإذا كان هذا الكلام مبررا فلسفيا لوجود أدب الخيال العلمي اليوم أكثر من أي زمن مضى فإن هذا المبرر يظل واهيا ما لم يجد في ع له مبررا فنيا يعتقده.
لهذا نجد أنفسنا نجيب السؤال الآخر، ما هي الإضافات النوعية التي جاء بها أدب الخيال العلمي والتي تميزه عن غيره كفن مستقل من فنون الكلام عن كل ما سواه؟
الجانب الأول هو ما ينتج عما ذكرناه سابقا، أي تحرير الحلم أو دفع عتبات التخمين والتوقع دون الوقوع في فجاجة القصص العجائبي والحكايات الخرافية التي تحمل مع لذتها وثيقة موتها ودفنها في ذهن القارئ الذي يظل بعيدا عن المعطيات السردية المعروضة أمامه، والتي يتلقاها للمتعة فحسب، دون المغامرة في دائرة التصديق الخطيرة.
تحرير الحلم هذا هو الذي عبر عنه القراء الأوائل لمجلات خ.ع المتخصصة التي ظهرت في العشريتين الهامتين بالنسبة للـ خ.ع 1930 – 1950، فقد كان المشرفون على احتضان هذا النوع القديم كتابة والجديد تصنيعا ونشرا وتوزيعا وتقديما لقراء القرن معطيات الثورة العلمية والتسيير التكنولوجي المعاصر المعقدة التي تشل عملية القراءة... كان المشرفون على هذا النوع الأدبي الناقد دائمي الاستفهام (عن طريق الاستفتاء) حول مصداقية النوع وحول ما يجلب هؤلاء القراء – الذين أصبحوا عنصرا لا مهرب منه في سيرورة الكتابة- إلى هذا النوع وقد رصد مؤرخو النوع مجموعة لابأس بها من الإجابات تدور كلها حول معنيين اثنين[2].

1- منح إمكانية الهروب من اليومي العادي والراهن، والقدرة على الحلم وعلى دفع حدود المنطق وتخوم التفكير والتخمين إلى أبعد النقاط الممكنة، وكل ما يماشي هذا الأمر من إثارة وحماس.

[2]-histoire de la science-fiction-p215.

2- التجديد الظاهر القوي المهيمن الذي لا شك فيه في هذه القصص منذ جول فيرن J-Verne وهربرت جورج ويلز H.G.Wells، إذ أن التجديد والحداثة التي يحرص عليها الأدباء دائما غالبا ما يلامسان العمل في جانب صغير (ماهية اللغة، تصوير الشخصيات، ترتيب العناصر السردية، تكسير خطية الزمن السردي، تداخل الأصوات الروائية، اللعب على التبئير، ...الخ) في حين أن التجديد الذي تحمله كتابات خ.ع شامل كامل يشمل كل العناصر أو أغلبها.

وقد تنبه كتاب خ .ع في النصف الثاني من القرن العشرين إلى المصداقية الكبيرة التي يمنحها النوع مع إمكانيات التحديث التي يعكف عليها كتاب الأدب العام the main stream كما يسميه الانغلوسكسون أو littérature générale ما كما يسميه الفرنسيون) وهكذا ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وعلى امتداد نصف قرن كامل موجات من كتاب خ.ع الذي أبعدوا عن خ.ع تهمة ارتبطت به عند نشأته (1920-1950) مفادها أنها قصص مثيرة مكتوبة بأسلوب رديء جدا لا يستطيع متعاطي الأدب تقبله، الشيء الذي جعل خ.ع آنذاك أساسا من الشباب الذين تبقى حاجاتهم الجمالية محدودة لا تزعج الكتاب الرديئين.[1]

وسواء تسمت هذه الموجات New Wave أو Cyber Punk أو Hard S-F أو le Elitistes أو غيرت تسمية Science Fiction إلى Spéculative Fiction بحثا عن مصداقية أكثر فإن كتاب النصف الثاني من قرن 20 وكتاب اليوم غيروا الصورة من متخصصين في العلم يتعاطون الأدب لإعطاء مشاهد وعروض علمية في قالب أدبي إلى كتاب حقيقيين (متخصصين في الأدب) يتعاطون العلم لإعطاء أعمال خيالية علمية جيدة وصلت في بعض الأحيان إلى درجة الحصول

(1)

على جوائز أدبية راقية (كاتب خ.ع الإنجليزي William Golding تحصل على جائزة نوبل عام 1985، والفرنسي روبرت ميرل Robert Merle تحصل على جائزة غونكور Goncourt الراقية بعمل من الخيال العلمي Week-and à Zuydcoote) ولعل أفضل مثال يبين التغير الجذري في تعاطي المعرفة من قبل أدوات التخمين Anticipation التي هي العضو المركزي في التركيبة المثيرة المسماة كاتب خ.ع، هو صورة ما فوق الإنسان كما ظهرت في كتاب ماري شيلي وكما ظهرت في منتصف القرن 20 وكما تظهر مع مطلع القرن 21 على أيامنا.

يكتسب سوبرمان ماري شيلي قوته بطريقة شبه سحرية، طريقة هي في منتصف المسافة بين السحر والعلم (أليس السحر هو علم الأزمنة القديمة؟ ثم أليس العلم سحر عصر الأنوار؟)... يكتسب هذا الإنسان الذي يكون جسدا ميتا مخيطا ومركبا من عدة أعضاء آتية من أجسام جديدة، للحصول على جثة نموذجية قوية البنية جيدة الدماغ، جثة تنقصها كهرباء التحريك لكي تسري الحياة فيها بعودة القلب إلى النبض، وهي كهرباء يعمل الدكتور فرانكشتاين على التقاطها من التيار القوي جدا الذي يرسله الرعد.

وليس غائبا عن الأذهان تأثير الاختراع الذي كان جديدا آنذاك والذي هو الكهرباء على مخيلة الأديبة فتأثير الكهرباء على الجسم جعله يتحول من حالة الكمون إلى حالة الحركة ليس خطأ علميا لأن الحركة نجدها خاضعة للسيالات العصبية التي هي تيار كهربائي في نهاية الأمر، وكذلك هو تأثير الكهرباء على القلب، الذي هو معطى نعرفه جيدا اليوم،إلا أن الاستعانة بالرعد من أجل هذه المهمة الكهربائية البسيطة يعد مبالغة كبيرة بحجم كبر نجاح هذه الرواية وحجم الأثر الذي تركته في تاريخ الأدب العالمي وتاريخ أدب خ.ع على وجه التحديد. وواضح من

هذه الوهلة الأولى بأننا في قلب التعريف الأكثر دقة للـ خ.ع الذي يورده نبيل راغب قائلا :"الـ خ.ع يتناول المخترعات العلمية والاكتشافات التكنولوجية التي توصل إليها الإنسان ثم يتعداها إلى اختراعات واكتشافات لم تظهر (هي افتراضية بلفظة الموجة الجديدة New Wave) ثم يترجمها إلى قضايا إنسانية ومغامرات درامية وإيقاعات فلسفية تجعلها تتموقع في زمن كتابها لتشكل مشهدا من الأدب المعاصر لتأخذ مكانها في تاريخ الأدب عموما."[1]

اما البطل النموذجي لكاتب من طليعة كتاب النوع في أمريكا هو فيليب كيندرد ديك Philip K.Dick فهو إنسان معتنق الفلسفات الشرقية، أو متعاط لأنواع من المخدرات والمواد ذات المفعول الاستيهامي الواقعية حينا والافتراضي أحيانا، أو ممارس لرياضات روحية خيالية، أو حتى آت من مجرات أخرى، أو عائد من الموت.. ولكنه بطل تكون قوته في قدراته الذهنية، في تمكنه من التخاطر مع الآخرين كما هي الحال في روايته يوبيك UBIK ، وتمكنه من قراءة أفكار الناس كما هي الحال في روايته البديل the simulacra و العداء فوق السكاكين Blade Runner وحتى التمكن من قراءة المستقبل وتوقع المستقبل بسبب عمق الوعي وشدة الحساسية والغوص في " الإنساني" كما هي الحال في روايته في انتظار العام المنصرم Waiting for last year ورجل القصر العالي the man in the high castle وقد تأتي هذه القوة مما وراء الحياة كما هي حال الأبطال المولودين في القبور ليسكنوا روايته (عالم ضد الساعة Counter –clock World).

سوبرمان منتصف القرن 20 هو إنسان أيقن أن العلم الذي بشرت به ماري شيلي وتبعها في ذلك جول فيرن لم يؤد سوى إلى قنابل الدمار الشامل وحروب الإبادة، فهو يبحث

---

[1] د.نبيل راغب: التفسير العلمي للأدب - ص 364.

عـن قوتـه فـي العلـوم الإنسـانية وفـي المعـارف الماورائيـة والفلسـفة والـدين...فـي إطـار علمـي صـارم فـي بعـض الأحيـان، ولكنـه علـم فـي خدمـة إنسـان قـوي بإنسـانيته وبروحـه وعقلـه و فلسـفته وتأملـه فـي ذاتـه ولـيس قويـا بالأدوات وبمنتجات الثقافة والمخترعات التي عـج بهـا القـرن 20 إلـى درجـة تفاهتهـا ونزعـت عـن الاختـراع قدسـيته القديمة، فبعد ان كانت الأجهزة على أيام ماري شـيلي وجـول فيرن تشبه سحر ساحر وكانـت جـديرة بـأن تـدور فـي أرجائهـا أحـداث رواية كاملة أصبحت مع فيليـب ديـك مجـرد ديكـور يمـر بـه البطـل دون التفات.

أما سوبرمان اليـوم فقـد تنبـأ بـه جيـروم .ك. جلـين المـذكور أعلاه منـذ سـنوات قـائلا إن المجتمعـات الصـناعية أصـبحت مقرة بحتمية اندماج الإنساني مـع التفـاني مـن زاويـة كـون الثقافـة نتيجـة للبحـث المتواصـل صـارت تحـاكي الخصـائص الإنسانية، وصار الروبوت يسـترجع إن بتوفيق كبير او محـدود كـل محمـولات الإنسـان وحركاتـه وقواعـده المعلوماتيـة ووظيفيـة جوارحـه... لـذلك ظهـر مـا يسـمى السـيبورغ Cyborg" أو الإنسان التقاني ... وإذا كان منطلق الفكـرة هـو السلسـلة الطويلـة للعلـوم والتخصصـات العلميـة الدامجـة "للعلمـي" فـي "البشـري" فـإن مـا بلغتـه ثقافـة خ.ع هـو إنسان يضع جسمه الذي أبدع " الله" في خلقه فـي خدمـة التقانة الواعية المعتمـدة علـى البرمجـة الذكيـة للكمبيـوتر، والرقائق فائقة القدرة، وأجهزة الاسـتعادة ... وشـيئا فشـيئا يكتسب الجهـاز العصـبي حـدة أكبـر وتكتسـب كـل الأعضـاء إمكانية أداء أفضل، وتزداد قدرات الذهن بـآلاف المـرات لكـي يظهـر سـوبرمان مقنـع علميـا وواعـد فـي ميـدان الخيـال العلمي بنصوص مثيرة جدا.

سئل كاتب خ.ع ري برادبوري[2] Ray Bradbury عن المخلوقات الغريبة التي تعج بها كتبه والتي تفوق في خلقها وإصباغ أغرب الأشكال عليها ووصفها بأغرب الأوصاف الممكنة فأجاب بأنه تفوق في ذلك لأنه كان عضوا في جمعية علمية تملك ميكروسكوبا كبيرا فكان يدخل قطعة قماش أو قشرة برتقال أو أي شيء ثم يشرع في التفرج على الكائنات البكتيرية الموجودة عليها (والموجودة في كل مكان) ثم يكتفي بوصف هذه الكائنات الواقعية (ولكنه واقع دون اليومي) فيدخل في أبعد أبعاد الواقع الممكنة في عرف القراء!

وسئل الإنجليزي ألدوس هكسلي إثر صدور كتابه المحوري " عالم جديد فاضل Brave New World" عن ذلك الكم من الاختراع وذلك الكم من المشاهد الجديدة فقال أنه لم يفعل سوى التقريب بين مشاهد واقعية مر بها ومرت به، وإن الغرابة تأتي من القرب الشديد بين السطر والسطر وبين الصفحة والصفحة ثم بين طرفي الكتاب، قال إن العالم لو طوي ليكون بحجم كتاب لكان رواية خيالية علمية أروع من كل ما يمكن أن يكتب.

الخيال العلمي إذن هو رحلة بعيدة جدا وغريبة جدا هدفها التعرف على واقعنا القريب والقريب إلى درجة تمنعنا من النظر إليه بوضوح وتجعل الوعي به بدرجة كافية عملية مستحيلة، عملية تشبه الخيال العلمي.

---

[2] ري براديوري مولود عام 1920 ،من أهم كتاب العصر الذهبي في أمريكا ، من اهم كتبه: فهم نهاية 471 ووقائع مريخية Fahrenheit 471- Mertion